موقع المثقفين ودورهم
في معالجة أزمة الديموقراطية في الوطن العربي

الدكتور عمر بن سالم

تحديد الثقافة:

الثقافة في علم الأجناس هي جملة الأنماط السلوكية المشتركة بين أفراد مجموعة من البشر، مكتسبة بالتمرّس والتهذيب والتعليم.

والأنماط السلوكية هي كل ما يصدر عن الأشخاص من أفعال وأقوال وآراء ومواقف[1].

وهذا السلوك الإنساني يخضع بدوره إلى عوامل وراثيّة وبيئيّة مشتركة تجعل ردود الفعل المنتظرة من أفراد هذه المجموعة متجانسة إلى حدّ ما[2].

فالثّقافة بهذا المفهوم الأنتروبولوجي توحّد أسلوب العيش والنظرة إلى الحياة، إذا كان المجتمع الذي تنسب إليه مجتمعاً متأصّلاً في ماضيه منسجماً مع حاضره، ومستجيباً لشروط التطوّر الذي ينتظره في المستقبل[3].

فهل تصحّ هذه الأوصاف والشروط على المجتمع العربي في وضعه الرّاهن؟

قبل الإجابة على هذا السؤال يجدر بنا أن نحلّل أنماط الثقافة العربيّة وعناصرها، حتى يتّضح لنا فهم المقصود من السؤال في حدّ ذاته.

أنماط الثقافة العربية:

للثقافة العربيّة نمطان: نمط مثالي يعتبر الأرضية السّلوكية للمجموعة العربية واحدة من الخليج إلى المحيط.

ونمط واقعي يشكل التنوّع ضمن هذه الوحدة المتميّزة من الدّاخل والمتجانسة في الظاهر. وهو ما يعبّر عنه بتعدّد الذاتية عند الباحثين[4].

وليست هذه التّعددية الدّاخلية بجديدة على ثقافتنا العربيّة. فقد قبلتها وتمثّلها منذ اليوم الذي خرجت فيه من الحجاز لترتاد أصقاعاً جديدة، وتتفاعل مع مجموعات بشرية أخرى غير العدنانيين والقحطانيين.

ويمكننا هنا أن نتوقّف قليلاً عند الأسس الأصليّة التي أقيمت عليها هذه الثقافة، ثمّ عند الرّوافد التي مبّزت أنماطها الواقعية.

للثقافة العربيّة ثوابت هي:

- القيم البدويّة بأعرافها وفنونها وآدابها كما كانتِ في الجزيرة.
- اللغة العربية باعجازها وبيانها وما نقلته من أشعار وأخبار.
- الدين الإسلامي بكتابه وسنّته وإجماع الصحابة عليه.

أمّا الروافد فقد شملت كل هذه الأصول وتفاعلت معها بدرجات متفاوتة في الانصهار والهضم.

ومن هذه الرّوافد نذكر بالخصوص:

- القيم الحضريّة والنظم التشريعية والاداريّة.
- العلوم اللّغوية والدينية بفروعها.
- العلوم العقلية والرياضية بنظرياتها وتطبيقاتها.
- الفنون والصنائع العمرانية والمدنيّة.

وقد كانت الثّقافة العربية بأصولها وفروعها، بقيمها ومنجزاتها، ثقافة مشعة مؤثّرة، وليست محرّد ثقافة عبور بالنّسبة لمعتنقيها[5].

فقد أخذت الشعوب التي دخلت في الإسلام بالأصول التي ذكرناها ونمّتها على الأرضية الحضارية والعرقية التي كانت تميّزها، فانصهرت فيها، وأصبحت لها نفس الأساليب المعيشيّة ونفس النظرة إلى الكون والحياة. يجمع بينها هذا النمط المثالي للثقافة العربية الإسلامية، ويوحّد مواقفها وردود فعلها، كلّما اقتضت الضرورة ذلك.

وظلّ أمر هذه الثقافة فاعلاً طيلة ثلاثة عشر قرناً. وإن تحوّلت السلطة من أيدي العرب الفاتحين إلى أيدي غيرهم من الأجناس، ومن الانتقال من مراكز الإشعاع والنفوذ بين المشرق والمغرب عبر العصور.

ذلك أنّ السلاطين والأمراء والولاة الذين تعاقبوا على مصير الأمة العربية الإسلامية لم تكن لهم ثقافة بديلة لتلك التي اعتنقتها هاته الشعوب، رغم جمودها وخفوت إشعاعها في القرون المتأخرة.

الصّدمة:

أمّا في العصر الحديث، وبعد استيلاء الدول الأوربية على

بلداننا ومقدّراتنا، فقد أخذت كفّة الثقافة العربيّة الإسلامية تخفّ، وبدأ نفوذها يتقلّص في الواقع وفي الضمائر ولولا نفحة من الاعتزاز بما كان لها من ماض مجيد شحدت العزائم، وحرّكت الهمم، لرأيناها قد ولّت الأدبار، كما ولّت جلّ الثقافات السابقة لها.

ذلك أن الثقافة الغربيّة التي اكتنفتها هذه المرّة هي ثقافة حالة عنفوان. ولها من القوّة ومن الاغراء ما يجعلها متغلّبة إلى حين.

وأوّل من دعا إلى اعتناق هذه الثّقافة الغربيّة الجديدة هم النخبة المتعلّمة في العالم الإسلامي خلال القرن الماضي. كانوا مبهورين بالمبادىء التي بنيت عليها والانجازات التي تحقّقت على يديها[٦].

ساعة من الانبهار لم يسلم منها حتّى دعاة الإصلاح من مشائخ الأزهر والزيتونة، الذين أتيحت لهم فرصة زيارة أوروبا والاطلاع على أحوالها. كلّهم نادوا بالأخذ عنها، وإن اختلفوا في كيفيّة الأخذ ومقداره[٧].

كانت مبادىء العدل والحرية والمساواة تغريهم.

وكانت الصنائع والمخترعات تبهرهم.

وكانت القوّة الاقتصادية والعسكرية والتنظيمات الإدارية، تتركهم يحلمون بنهضة إسلامية تعيد للأمة ماضيها الأغرّ، وتعيد لدولة الإسلام عزّتها وصولتها ومناعة جانبها[٨].

وطالت بنا ساعة الانبهار أكثر من قرن. فقادتنا وزعماؤنا لا يرون حتى الآن طريقاً للخروج من التخلف غير الطريق الأوروبيّة.

هم يرغبون في الحصول على الانجازات الأوروبية من شعوبهم، ولكنهم لا يعطونهم الحقوق الاجتماعية التي أعطتها وتعطيها أوروبّا لمواطنيها.

هم يطمعون في التقدم. ويدعون الناس إلى الأخذ بأسباب التطور على غرار أوروبا، ولكنهم يكتبون الحريات ويخنقون طموحات الجماهير في التقارب والوحدة.

همّ حكّامنا هو البلوغ إلى درجة من القوة المادية التي تجعل ساحتهم مهيبة. لكن مهيبة من طرف من؟

وإذا نحن تركنا جانبي الانبهار والتقليد، وجدنا أن أصل الدخول في هذا الدور الجهنّمي للتنمية على غرار النموذج الأوروبي وبوحي من القوى العظمى، إنّما يعود أساساً إلى ما تلقّاه المسؤولون عندنا من تعليم وما تعوّدوا عليه من مناهج للتفكير جعلتهم عاجزين عن الاستغناء عمّا تعوّدوا عليه. وحتّى عن تصوّر بديل قومي له بما في ذلك اللغة.. وهكذا الثقافة. إذا كانت أصيلة أنجبت أصيلين، وإذا كانت نغلة أنجبت أنغالاً مشوهين!

أنواع المثقّفين العرب:

لا يمثل المثقفون العرب طبقة متميّزة لها خصائصها ودورها في الإنتاج. ليس عندنا إلاّ جماعة من المتعلمين[٩]. إذا نحن حاولنا تصنيفهم سواء الذين تلقّوا تعليمهم في مدارس الغرب وجامعاته قبل الاستقلال، أو في مدارسنا وجامعاتنا بعد ذلك - وهل هنالك فرق بين هذه وتلك ما دامت المناهج متشابهة، واللّغات المستعملة واحدة. والمخابر واحدة. والروح المسيطرة على أطرها متجانسة - إذا نحن حاولنا تصنيف هؤلاء جملة، حسب تكوينهم ونوعية الوظائف والمهن التي يشغلونها بعد التخرّج، فإنّنا نصنّفهم في الفئات التالية:

١ - الأساتذة والمربّون في قطاعات التعليم بدرجاتها.
٢ - الكتّاب والصحفيّون بما في ذلك الأدباء.
٣ - السياسيون والاداريون.
٤ - أصحاب المهن الحرّة بما فيهم من فنانين ورسامين.
٥ - الفنيّون والخبراء.
٦ - الضبّاط بمختلف الدرجات والأزياء.
٧ - الباحثون والعلماء من أهل الاختصاص.

من هذا التصنيف يظهر لنا أنّ هؤلاء جميعاً ينقسمون إلى قسمين بارزين:

قسم مؤثّر على الساحة الثقافية مباشرة أو عن طريق غير مباشرة، ويدخل في عددهم الأصناف ١، ٢، ٣، ٤.

وقسم منفّذ لا تأثير له يذكر إلاّ في الحالات الاستثنائية ويدخل تحته الأصناف ٥، ٦، ٧.

وفي كلا القسمين، الأول والثاني، من هو واع بدوره القيادي في مجتمعه، ومنهم من لا وعي له بذلك الدور لسبب أو لآخر[١٠]. وهكذا تتقلص رقعة العمل الملتزم بين هؤلاء المثقفين نقلصاً يزداد مع الأيام ضيقاً. ولا ينجو من داء التواكل واللامبالاة وحتى اليأس أحياناً، إلا من رحم ربّك من أصحاب المبادىء. وهم أقل من القليل في عالم تتغلب فيه المطامع الشخصية على المطامع القومية، وتسود فيه الأنانية على بقية الصفات.

ولكي ندلل على ضآلة دور المثقفين الآن في مجتمعنا هذا المذبذب، فإنه لا مناص لنا من أخذ كل طائفة من هؤلاء على حدة لتحليل عناصر تكوينها وذكر موقعها من مركز الفعل، وتحديد قوتها في التسطير والتأثير.

١ - الأساتذة والمربون:

ثقافة هؤلاء مزدوجة عربية أجنبية. وكلما ازدادوا ارتقاء في الدرجة العلمية، مالت بهم الثقافة الغربية على حساب الثقافة الأم. وكلما ارتقوا في سلّم الوظيفة، ازدادوا التصاقاً بالسلطة في بلدانهم.

أمّا دورهم في وضع الخطوط العامة للسياسة التعليمية فقد يكون مفروضاً من الخارج، وقد يكون مفروضاً من الداخل.

أ - فإن كان مفروضاً من الخارج تغلب عليه الانفتاح فأصبح ريشة في مهب الثقافات تعصف به ريح الشرق طوراً وتنهكه ريح الغرب أطواراً.

ب - وإن كان مفروضاً من الداخل كان التقوقع الضيق والتعصب لبني الجلدة والبلد.

أما المناهج فإمّا أن تكون عتيقة متحجرة تعتبر العلم

والتحربة حكرا على السّلف الصالح، وإمّا عصريّة جدًّا بسها وبين أهلها قطيعة وشاز.

يبقى هذا الوسط الذهبي الذي يحلم به البعض، ولا بدركه بسبب التلوّن في السياسة والتبدّل الظرفي غير المخطط للبرامج والتغيير الفجائي في المسؤولين والمواقف.

٢ - الكتّاب والصحافيون:

ثقافة معظم هؤلاء مزدوجة أيضاً ولغتهم كذلك. أمّا أساليبهم وطرق العرض والتحرير عند أغلبهم فهي غربية أكثر منها عربيّة وهم على صعيد الممارسة والانتماء ثلاثة أصناف:

أ- رسميّون، يبطفون باسم السلطة ويكتبون لها، فهم لها أتباع ولا خير في كتّاب وصحفيين لا يكتبون إلاّ بالطّلب، وفي الاتجاه الذي بعيّنه لهم السّاسة ويدعونهم إليه، ثم بالقدر الذي يريدون.

ب- معارصون مغضوب علبهم وممنوعون من التعبير الحرّ في عامّة الأقطار العربية تقريباً. تحاصرهم السلطة في الدّاخل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فيهاجرون. وفي هجرتهم إلى الأشقاء يسخّرون أو يكمّمون حتّى بتعودوا على الصّمت. فإن ساقهم الحظ إلى بلاد أجنبية، انقطعت أصواتهم فلم تصل إلى بلدانهم. فإن طال بهم الصّباح، ولا من مجيب، بدّلوا اللّغة، ورطنوا مع الرّاطنين[١١].

ج- أمّا الصنف الثالث فهو الصنف الذي يدّعي الموضوعية والحياد. وهم في الغالب جماعة لا يحتاجون إلى أقلامهم في الحصول على المعاش. فهم ينطرون إلى الصراع القائم من أعلى الرّبوة. ولا ينحدرون إلى المعترك إلاّ عندما يكون المكان وثيراً وأميناً. وعندما تلفهم الدّوامة يتخدّرون ويتخمّرون، ويصبحون ملكيين أكثر من الملوك!

٣ - السّياسيّون والاداريّون:

كان من الممكن أن أفضل هذين النّوعين، ولكن التداول بينهما على المناصب السّامية وكراسي المسؤوليات جعلني لا أفرق بين المنتمين إليهما في التصنيف، بسبب أصل التكوين ونوع التّعليم.

وهم عموماً من الفئة المنبهرة، ومن أصحاب اللّسانين والثقافتين في كلّ البلاد العربية بلا استثناء.

أغلبهم منحدر من الطبقة البرجوازية، والأرستقراطية أحياناً، ومنهم أيضاً من هو من أرومة شعبية، ولكن الظّروف خدمته، فوصل إلى ما وصل إليه إمّا عن طريق التحزّب أو عن طريق التعصّب أو عن طريق الإصهار...

أولئك وهؤلاء عمدة الثقافة الغازبة، وعلى أيديهم تتغلغل وتنتشر وإيمانهم بالأصالة ضعيف، وتشبّثهم بالنماذج الغربية في التربية والتعليم ثم في التنمية والتقدّم جعلهم لا يعتدون بالواقع القومي، ولا يؤمنون بالإمكانيات الذاتية لشعوبهم إلاّ بعد أن تترجم إلى اللّغات الأجنبية، وتجرّب في أمريكا أو في غيرها من البلدان، وتعطي تبعاً لذلك تأشيرة الدّخول[١٢].

نكران هذه الطائفة لتراث قومهم لا يجد تفسيراً إلاّ في مركبات النّقص التي تكوّنت لهم في أوروبّا.

ولكن هل تعتبر المركبات النفسية أعذاراً مقبولة؟.

وهذه الطائفة من المثقفين المنبتين هي المسؤولة عن تبعيّتنا المتعدّدة الأبعاد للغرب أو للشرق. وهم بالتالي حجر العثرة الذي يعطّل مسيرتنا القوميّة التوّاقة إلى التحرّر والوحدة والإبداع[١٣].

٤ - أصحاب المهن الحرّة وأهل الفنّ[١٤]:

هؤلاء أيضاً تثقّفوا بالثّقافة الغربيّة، وتربّوا عليها، عدا فئة قليلة من بقايا الجامعات الوطنية ولكن هذه الفئة ما فتئت أن انجرفت مع التيّار لسببين اثنين:

أ- لأنّ الإدارة، بصفة عامّة، تهضم حقّ أولئك المتخرّجين من الجامعات الوطنبة، وتعتبر شهاداتهم غير عصرية.

ب- لأنّ «التّبرجز» بالمرصاد لكل أصحاب المهن الحرّة من ذوي الدّخل الوفير. ومن كان في بلادنا صاحب أموال فإنّه لا يسلك في الحياة إلاّ مسلك المحظوظين.

هم في واد وبقيّة الشعب في واد. لا رابطة التضامن تستحثهم ولا حتى صلة الرّحم.

ومن هؤلاء، الأطبّاء والمهندسون المعماريون والمقاولون والصيادلة ورجال الأعمال وأصحاب البنوك والشركات والمالكون للمصانع والوكالات، والماسكون بخطوط التوريد والتصدير وكبار التجار، وأصحاب العقارات والفنادق ومن أغفلت في سائر قطاعات الإنتاج والاستغلال والخدمات وإن كانت متصلة بالفّ[١٥].

وكلّهم إلا القليل من الاستثناءات لا همّ لهم إلاّ الربح والإثراء على حساب الغير مهما كانت رتبته في السّلّم الطبقي للمجتمع الذي ينتمون إليه.

يناصرون السلطة، والسلطة تنصرهم وتحميهم، وتحمي مكاسبهم، ولو كانت حراماً في نظر الجميع.

٥ - الفنّيون والخبراء:

هذه الفئة الخامسة مسكوت عليها في مجتمعاتنا العربية لأنّ أفرادها يعيّنون في الغالب كموظفين في أجهزة الدولة، ولا يصل بعضها إلى مراكز النفوذ إلاّ في الحكومات التي تعتمد في تصريف شؤونها المعقّدة على «البيروقراطيين» لأنهم أسلم عند الانتداب من المنافسين السّياسيين[١٦].

وثقافة هؤلاء تكاد تكون الثقافة الغربية المثالية التي لا تعرف الحياد عن الخطوط والجداول والأرقام. وهم غالباً من خريجي معاهد التقنية والتصرّف أو من كلّيات العلوم الصحيحة وشبه الصّحيحة أو كانوا وما يزالون يتمّون تعليمهم كليًّا أو جزئيًّا في البلاد الأجنبية. أمّا دورات التدرّب فهذه لا تتم أحياناً إلاّ في الخارج، وبالمناهج الأجنبية، وعلى الآلات والأجهزة الأجنبية، بحكم امتلاك بعض بلداننا للتكنولوجيا في بعديها النظري والتطبيقي.

والفنّيّون والخبراء هم المسارب التي تهبّ منها الرياح في مجتمعنا العربي. هم الذين يوصون بإرسال الطلاب والمتربّصين، وهم الذين يقدّمون مطالب استيراد المخابر والتجهيزات، وهم الذين يكتبون التقارير في استبدال المناهج واقتناء البضاعة من الخارج، ولو كان ذلك على حساب البضاعة المحلّيّة والانتاج الوطني أحياناً[١٧].

وهؤلاء الخبراء تجدونهم في كل أجهزة الدّولة ودواليبها، كما تجدونهم في مكاتب الشركات ودواوين الوزراء. ولا تخلو منهم إدارة، ولا يغيبون عن مكان. لو كانوا دائماً من مستشاري الخير، لخفّ حملهم، ولكنّهم يوظّفون في الغالب لإثقال كاهل الرعيّة والدفع بها إلى ما لا تريده جدواهم في كثرة أرقامهم وملفاتهم. هم أدوات تبرير وتنفيذ، وإن كانوا غير واعين بذلك أتمّ الوعي. حياتهم عمل إداري وتقني واستهلاك، عطلهم أكل وشرب. بينهم وبين أهليهم قطيعتان: قطيعة الأجيال وقطيعة التغرّب. وهل يرجى من المنبتّ خير؟

٦- العسكريون الضبّاط بمختلف الأسلحة والرتّب:

هؤلاء قوم تعلّموا في المدارس الثانوية، ثم تخرجوا في الكليات والمعاهد المختصة وغير المختصة سواء داخل أقطارهم أو خارجها.

ثقافتهم عسكرية، إلاّ في جذورها الأصلية. وطبعهم كذلك، ربّما حافظ بعضهم على هذه الجذور بعد التخرّج، وربّما أتلفها في طريق التكوين ظروف المعاش. ومستوى الرّتبة هي التي تتحكّم في أرضيّة هؤلاء الثقافيّة. فإمّا إلى ثبات الكيان، وإمّا إلى الانبتات.

والضبّاط في ظروف الاستقرار والأمن أدوات مراقبة وأجهزة نظام. أمّا إذا انقطع الروتين فهم بين رجلين: ضابط واع بمسؤوليته متجذّر في ذاته له طموح وغيرة على وطنه وقومه، وهذا النّوع غالباً ما يكون من المشكوك في ولائهم للسلطة القائمة. فهو مراقب، وإن تحرّكت اتهم بالخيانة فمصيره الإعدام أو السّجن أو الإحالة على المعاش. وضابط لا تستهويه القيم، يجري وراء الأوسمة والمناصب فهو يلهث وراءها على حساب المبادىء وهذا النوع صنيعة الحكّام، يرتقي في المراتب ويحصل على كل الامتيازات بقطع النّظر عن كفاءته وجدواه[١٩].

وليس لهذا النوع من المثقفين من تأثير على الساحة الوطنية أو القومية إلاّ في الظروف الاستثنائية: ظروف الانقلابات العسكرية واندلاع الحروب. وهي ظروف طارئةقد تدفع بعجلة التطوّر إلى الأمام، وقد تسمّرها في مكانها بأيد من حديد.

والمراهنة على دور هؤلاء في ظروفنا الحالية هو ضرب من الاستهتار بالحقوق الديمقراطيّة لشعبنا وخذلان له في طموحاته القومية. خاصّة وأن الانقلابات السياسية منها والعسكرية، قد أصبحت تنظم الآن من الخارج، ولفائدة القوى الامبريالية التي تنظمها وتدعمها بعد النجاح لضروراتها الأمنية وتوسيعاً لرقعة هيمنتها ونفوذها.

٧- الباحثون والعلماء:

هذه الفئة ما تزال قليلة العدد في وطننا العربي، وينقصها إلى الآن الدّعم المادي والأدبي.

وثقافة الأغلبية الساحقة من هؤلاء ثقافة غربية لا جدال فيها، وكذلك أيضاً أهواؤهم ومناهجهم ومخترعاتهم..

من هؤلاء من أبى أن يتفاعل مع الواقع القومي ففقد مقدرته على التجذّر وعلى التحليل والتعليل. ومنهم من لم يجد ما يساعده على الفعل في بلاده فهاجر إلى الخارج وفضّل الدولار على الدينار[٢٠]. أمّا البقية الباقية فقد ركنت إلى أرض الوطن إما بسبب الروابط العائلية أو بسبب مالاقوه خارج الحدود من شعور بالغربة وإحساس بالاحتقار والمهانة.

دور هؤلاء في بلدانهم كدور الفنّيين في بوتقة الحياة الإدارية. طموحهم شخصي أكثر منه قومي.

تنقصهم الصفات الثابتة للعلماء. فهم في الغالب من المتعالين المتكورين يستهينون بالجميع لأنهم يعتبرون أنفسهم فوق الجميع[٢١].

منهم من وجد لنفسه دوراً في حركيّة النظام، فتصدّر رئاسة جامعة أو إدارة معهد أو كلية. ومنهم من رضي بالرّوتين، واكتفى بالتحبير والمطالعة والتذكير. تراهم في الندوات المختصة جدًّا لا يشبعون من مضغ الكلام والردّ بالخصام على الخصام وعندما تنتهي الأشغال يعودون إلى بيوتهم المكيّفة هانئي الضمائر مرتاحي البال. علاقتهم بالشعوب التي ينتمون إليها كعلاقة الطبيب بمرضاه. واهتمامهم بمشاكل أقوامهم كاهتمام المخبري بالجراثيم التي يعالجها.

أمّا تأثيرهم على الساحة الثقافية فهو رهين الظروف والصدف. مثلهم مثل عباقرة الأدباء. وهل يختلف أولئك عن هؤلاء؟.

وسائل التعبير وطرق التأثير :

بعد استعراض هذه الأنواع المتواجدة عندنا من المثقفين، ننتقل الآن إلى استعراض بعض وسائل التعبير وطرق التأثير المتوفرة لهذه الأنواع على الساحة الثقافية.

قبل الدخول في تعداد هذه الوسائل يجدر بنا أن نميّز بينها منذ البداية حتى لا نحسب على الثقافة ما ليس منها، وما ليس لها.

ذلك أن الوسائل على نوعين:

نوع حكومي ملتزم بسياسة البلاد. وتدخل فيه الجرائد والمجلات الرسميّة وشبه الرسميّة، كما تدخل فيه الوسائل السمعيّة والسمعيّة البصرية التي هي حكر على النظام، وهذا النوع الأول: وإن اتّصفت بعض برامجه بالثقافيّة فإنه لا يخدم قضيّة الديمقراطية في الوطن العربي. بل يمكن القول بأنه إرهاص للديمقراطية وتشويه لجوانبها النيّرة. وقد بدأت الجماهير العربية الآن تفرّق بين أنواع أجهزة الاعلام، وتتعرّف على مناهج كل نوع وطرقه الخاصّة به في التأثير. وسوف لا نعتبر هذا

القسم الأول عنصراً من عناصر رقعة النضال، لأنّه ينتمي في الواقع إلى الرقعة المقابلة، رقعة الهيمنة وكبت الحرّيات وقلب الحقائق. ومصداقية هذا النوع آخذة في التقهقر والانخذال بسبب الوعي المتزايد والطموح العنيد في البلوغ إلى التحرّر والانعتاق[٢٢].

أمّا النوع الثاني فهو الجرائد والمجلات الحرّة التي تعبّر عن الرأي المعارض. وهذه في الغالب لا تجد الدّعم المادي والأدبي إن وجدت واعطيت لها رخصة الصدور.

وينقص هذا النوع أيضاً زيادة على حرية الصّدور حرّية التّعبير سواء هاته التي يمنحها قلم الرقابة، أو تلك التي يمنحها الكاتب لنفسه إذا وجد الشجاعة الكافية لمعاجلة القضايا الشائكة المتعلقة بالسّياسة والدّين والجنس في مجتمعه المحزّب المتعصّب المكبوت.

والنوع الثالث من هذه الوسائل هي الكتب والنشريات. وحكم هذه كحكم الصّحف والدوريات. فإنّها لا تجد الطريق إلى النشر إلاّ عندما تكون مؤيّدة أو مسالة للنّظام القائم. فإن لم تكن كذلك تعطّلت، وطال بها الانتظار. وإن قدّر لها يوماً أن تطبع خارج القطر المعني بها فإنها تحجز عند الدخول، وربما حجز معها صاحبها بالمناسبة.

أمّا الوسيلة الرابعة فهي المسرح:

والمسرح في بلداننا على نوعين: المسرح الموالي للأنظمة القائمة ويلاقي هذا النوع التأييد والدّعم من سلطة الإشراف. والمسرح المعارض، وهو مطارد على مستوى النشر وعلى مستوى التمثيل. إذا تخطّى رقابة التأليف وقع تحت سيطرة رقابة الإخراج. ويمكن القول بأنّ الأغنية تعامل هي أيضاً نفس المعاملة على مستوى الكلمة وعلى مستوى التلحين والاذاعة، وإن كانت وسائل التبليغ بالنسبة إليها أقل كلفة وأسهل في التلقي من المسرح الممثّل.

بقيت الوسيلة الخامسة للتأثير وهي ما يعبّر عنه في لغة السياسة بالاتصال المباشر.

هذه الطريقة تكاد تكون خاصة بالأساتذة والواعظين ولا تتسنّى لهم في كل وقت. فقد أصبحت الخطب مراقبة من طرف الشرطة في المساجد، وأصبحت الأقواس التي تفتح أثناء الدّروس هي أيضاً مراقبة. عيون السلطة تنظر بعيون بعض الطّلبة والتلاميذ أيضاً، لكل الأحزاب تنظيمات طلاّبية وللحزب الحاكم نصيب الأسد في هذه التنظيمات[٢٣].

والإدارة سيف مسلول على رؤوس الأساتذة والمربين والخوف عذر شرعي عند سادتنا الفقهاء، عندما يكون الحاكم جائراً. فلا غرابة إذن أن يصمت القلم واللّسان في بلادنا، وأن يصمت معها صوت الحق، وعندها تخلو الساحة إلاّ من الجرائد والمجلات الناطقة باسم النّظام، والاذاعات الناطقة باسم النظام والتلفزات الناقلة لخطب النظام وصور المسؤولين عن النظام، نغمة واحدة وصوت منفرد، معاد، مكرر، ممجوج. يبقى على الأدباء والكتّاب أن يدخلوا في الجوقة ليعزفوا كإخوانهم الشعراء والصحافيين الرسميين وعلى نفس الوتر وإلاّ زجّ بهم في السّجون وحرموا من حق المواطنة والعمل. دولاب جهنّمي يطحننا جميعاً في زمن المقت هذا. رقابة ذاتية على اللغة والعبارات، ورقابة سياسية على المضامين والآراء ورقابة بوليسية على الحركات والسكنات....

كيف الخلاص من عجلات الدّولاب أيّها الأدباء؟

للإجابة عن هذا التساؤل فإنّي أتقدّم إليكم بالمقترحات التّالية:

إذا أردنا أن تكون لنا ثقافة عربيّة ديمقراطيّة تقدميّة ومناضلة، كما يحلم بها مؤتمرنا هذا، فلا مناص من التزامنا بالخطوط التالية:

١ - تنسيق وتنظيم عمليات الدفاع عن الحريّات المكبوتة على السّاحة العربيّة، وتبني قضايا الكتّاب الذين يتعرضون للاضطهاد، والتعهدّ بالدّفاع عنهم أمام محاكم الاستثناء وأمن الدولة، كما تفعل جمعيات الدّفاع عن حقوق الإنسان في عامة بلاد الدّنيا.

٢ - التزام المؤتمر القادم بتقديم تقرير عام عن أوضاع الأدباء والكتّاب في مختلف الأقطار العربية، وتقديم كشف بالموقوفين والممنوعين من الخروج والمحرومين من حقوقهم المدنية حتّى يتسنّى لاخوانهم في الأقطار الشقيقة التعرّف عليهم ومناصرتهم وتنظيم حركات جديّة للدّفاع عنهم والتّضامن معهم.

٣ - إصدار ميثاق ثقافي لاتحاد الأدباء العرب تتبنّاه الاتحادات القطرية وتتعامل به على المستوى الوطني وفي نطاق التّبادل بين الأشقّاء والأصدقاء.

٤ - تكوين رصيد مالي خاص بدعم المشاريع الثقافية الهادفة التي يتقدّم بها الأدباء والكتّاب كأفراد أو كمجموعات ضمن الاتحادات القطرية الملتزمة بالانجاز.

٥ - إصدار مجلة الاتحاد وتخصيص باب فيها لضبط القيم والمفاهيم الثقافية القومية الملتزمة. وشذب ما التصق بمدلول الألفاظ المتداولة من خلط وتشويه.

٦ - طبع وترويج المؤلفات الأدبية والفكرية التي تدعم مسيرة التقدم الديمقراطي في الوطن العربي، مع العزم على تحدّي المعوّقات الماديّة والحواجز القائمة الآن بين الأقطار.

٧ - إقامة أيام دراسية تجمع اتحادات الأدباء ووزارات التربية والثقافة في مختلف الأقطار العربية قصد وضع مخطط عام مشترك لأسس السياسة التعليمية والتنشيط الثقافي على جميع المستويات وفي كافة الدرجات.

بذلك فقط يمكن لاتحاد الأدباء العرب أن يسمع صوته.

الدكتور عمر بن سالم

مراجع البحث

مرتّبة حسب ألفبائية الأسماء

- أبو القاسم سعد الله: منطلقات فكرية، نشر الدار العربية للكتاب، تونس ليبيا، ١٩٧٦.
- ارفنج كريستول: ثقافة المثقفين المضادة (دراسة). ترجمها

أمين عبد الله محمود في مجلة **الثقافة العالميّة**. العدد التجريبي ٢، السنة ١، المجلد ١، نيسان ١٩٨١. نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.

– بيرم الخامس: **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، تصوير دار صادر عن الطبعة الاعلامية بالقاهرة، ٥ أجزاء في مجلدين، صادر، سنة ١٣٠٣ هـ.

– خير الدين التونسي: **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، تقديم وتحقيق المنصف الشنوفي، تونسي، ١٩٧٢.

– رالف لينتن: **الأسس الثقافية للشخصية** (بالفرنسية) نشر دار دينود باريس، ١٩٦٥.

– السيد ياسين: الشخصية العربية: النسق الرئيس والانساق الفرعية (دراسة) في كتاب **الذاتية العربية بين الوحدة والتنوّع**، نشر مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ١٩٧٩.

– الشاذلي الفيتوري: المقوّمات الثّقافية لوحدة المغرب حاضراً ومستقبلاً وما ينجم عنها في المجال التربوي (دراسة) **ملتقى أبناء المغرب العربي** مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية تونس، ١٩٨١.

– الطاهر اللّبيب: **سوسيولوجية الثقافة**، نشر معهد البحوث والدراسات العربية، الدراسات الخاصّة ١٢، القاهرة، ١٩٧٨.

– علي سعد: العلم والتكنولوجيا في الثقافة الوطنية (دراسة) ضمن كتاب **الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة**. نشر اتحاد الكتّاب اللبنانيين بيروت، ١٩٧٩ م.

– عمر بن سالم: **قابادو، حياته، آثاره، وتفكيره الاصلاحي**. نشر مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ١٩٧٥ م.

– محمود سويد: الثقافة الوطنية وحرية الصحافة (دراسة) في كتاب **الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة**، بيروت ١٩٧٩ م.

الهوامش

١ – انظر هذا التعريف الانتروبولوجي للثقافه، ضمن مجموعة من التعاريف الأخرى، في كتاب د. الطاهر اللسب، سوسيولوجيه الثقافة، ص ١٣ فوق (تعريف في روشي).

٢ – الدكتور الشاذلي العبتوري، المقوّمات الثقافية لوحدة المغرب حاضراً ومستقبلاً وما ينجم عنها في المجال التربوي (دراسة). مركز الدراسات والبحوث الاقتصاديه والاجتماعية، ص ٣

٣ – راف لينتون: الأسس الثقافية للشخصيه، ص ٣٣ (بالفرنسيه)

٤ – د. السيد ياسين: الشخصية العربية: النسق الرئيسي والانساق الفرعيه، في كتاب الذاتية العربية بين الوحدة والتعدّد، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة الدراسات الاجتماعية عدد ٤، ص ١٦٣ وما بعدها.

٥ – د. الشاذلي العبتوري، الشخصية الثقافية المغربية، ضمن الدّراسه السابقة الذكر، الصفحات ٥ – ٧.

٦ – عد مثلاً إلى ما كتبه خير الدين باشا في مقدمه كتابه أقوم المسالك في معرفه أحوال الممالك (الأسوة الأوروبية وتقدم الغرب حديث وأساسه العدل والعلوم) ص ٩٦ وما بعدها.

٧ – نفس المرجع السابق، السبب الداعي للتأليف (اقتباس ما يوافق الشريعه الإسلاميه)، ص ٨٩ – ٩٥ انظر كذلك صعوه الاعسار ليرم الخامس أنواب مختلفة ضمن الأجزاء.

٨ – السح محمود قابادو، دباحة كتاب الحرب، ومقالاته في جريدة الرائد التونسي، عد إلى تحليل هذه الآراء في كتابنا محمود قابادو حياته، آثاره، وتفكيره الاصلاحي ص ٣٠٠ – ٣٠٦.

٩ – كل محاولة للتمييز بين المثقفين والمعلمين عندنا لا تجد مبرّرا إلاّ عند الراغبين في التمرّ أنفسهم. أمّا مفهوم الثقافه وما جاء فيها من تحديدات فهي تشمل كل أصناف المعلمين بما فيهم من إداريين وفنيين وحرفيين وعسكريين وغيرهم (انظر تحليل بطرنو أنطونيو فرامسي في كتاب سوسيولوجيّة الثقافة للدكتور الطاهر اللبيب: المثقفون والطبقات الاجتماعية، ص ٥٨ – ٥٩)

١٠ – عد إلى دراسة الأستاذ محمود سويد، الثقافة الوطنية وحرية الصحافة عنوان هامشه المثقفين، في كتاب الثقافة الوطنيّة في لبنان على خط المواجهة، ص ١٩٣.

١١ – انظر دراسة الأستاذ أبي القاسم سعد الله، أزمة المثقف الثوري في الوطن العربي، في كتابه منطلقات فكريه، ص ٩ – ١٣.

١٢ – تدثر دعوه الأستاذ أبي القاسم سعد الله إلى تأميم الثقافة الوطنيه في كتابه السابق الذكر، ص ١٥٦ وما بعدها.

١٣ – ثقافه المثقفين المضادة، لألفين كرنسول، ترجمة أمين عبد الله محمود، في مجلة الثقافة العالميه، العدد الخريفي ٢، السنه ١، المجلد ١ أفريل ١٩٨١، ص ٢٢ وما بعدها.

١٤ – صنّفنا الفنانين والرسامين والسينمائيين ضمن هذه الطائفة لأن علاقات الانتاج متشابهة بين فئاتها تقريباً. وإن اختلفت نوعيّة الانتاج وأهميته على المستوى التنفيذي.

١٥ – ثقافه المثقفين المضادة لكرنسول، ترجمه أمين عبد الله محمود، المرجع السابق الذكر، ص ٢٩ فوق.

١٦ – تحدث ذلك خاصّة في القطاعات الاقتصاديه والماليه وفي التخطيط

١٧ – عد إلى دراسة الدكتور علي سعد. العلم والتكنولوجيا في الثقافه الوطنية: موقف المفكرين من الحضارة التكنولوجيه، ص ٢٣٨ – ٢٤٠، في كتاب الثقافة الوطنيه في لبنان على خطّ المواجهه

١٨ – انظر نفسيات جان مارك بيوي للوظائف العضوية في مختلف الهيئات الثقافية التي منها «وظيفه الاكراه التي تمارسها بعض المثقفين كعناصر في الدولة أو كاطارات إداريه وسياسة وقضائية وعسكرية في كتاب سوسيولوجيّة الثقافه، تحليل د. الطاهر اللبيب، ص ٦٠ فوق

١٩ – لنا في حاجة إلى إعطاء أمثلة هنا، فكلّنا على علم بما يجري على هذا المستوى في بلداننا المختلفه.

٢٠ – حاولت بعض الأقطار العربية إقامة مراكز علمية لاستجلاب هؤلاء ولكن الأغلبيه ما تزال تعيش في أوروبا وأمريكا.

٢١ – ليس هذا كبير تحيّ على هؤلاء، كما يتوهّم البعض وإنّما هو وصف لواقع موضوعي ولتصرّف بيّن للعيان.

٢٢ – ردّ الفعل على هذا النوع من أجهزة الاعلام أصبح ملموساً لدى الجماهير الشعبية فهو يتعدّى عدم التّصديق بما تنقله إلى عدم الثقة والاهتمام بما تؤكّد أو تقول

٢٣ – لا تنحصر هذه الحالة على قطر عربي دون قطر على ما أظن.